بحث عام | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 28 أغسطس 2018

الطائفيّة الذكوريّة في بنية اللّغة العربيّة

قراءة في ذكوريّة اللّغة

يوسف رحايمي
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

الطائفيَّة الذكوريَّة[1] في بنية اللّغة العربيَّة

قراءة في ذكوريَّة اللّغة[2]

1– الطائفيَّة الذكوريَّة مصطلح نسعى من خلاله إلى إثبات الممارسة العنصريَّة ضدّ المرأة في صلب بنية اللّغة العربيَّة، وإنْ كان هذا المصطلح ينحدر من معجم ديني، فإنّنا نستعيره لمضمونه الدّلاليّ العميق، وقد استلهمنا هذا المصطلح من نصر حامد أبي زيد في كتابه دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة. (انظر: نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف: قراءة في خطاب المرأة ضمن فصل إنثروبولوجيَّة اللّغة وانجراح الهويَّة، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، ص 28).

2- نشر هذا البحث في مجلة يتفكرون، الصادرة عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، عدد 12

توطئة:

تنبع هواجس هذا المقال من عبث الأسئلة المتراكمة حول الخطاب العربيّ عموماً سواء كان سياسيًّاً أو اجتماعيًّاً أو ثقافيًّاً، والذي نراه خطاباً ذكوريًّاً بامتياز وصل إلى حدّ ممارسة طائفيَّة تنتصر للذَّكَر على حساب الأنثى، ولمَّا كان هذا الخطاب نابعاً من حقول معرفيَّة متعدّدة ساهمت في تكوُّنه، فإنَّنا ارتأينا أن نتعقّب جذوره في بنية اللّغة العربيَّة، لا سيَّما أنَّ اللّغة هي الحاضنة الأولى للخطاب، وهي أداة تبليغه في الأغلب الأعمّ.

وقد يكون التّفتيش عن البُعد الذّكوريّ في بنية اللّغة العربيَّة مخاطرة صعبة؛ ذلك أنَّنا نبحث في مسألة لها تمظهرات عدَّة عبر التَّاريخ، وقد اتخذت أبعاداً حضاريَّة وسياسيَّة بحسب السياق الذي جاءت فيه ما يحتّم رصدها بأعين متعدّدة (ثقافيّ، اجتماعيّ، نفسيّ) وليس من منطلق لغويّ فقط، غير أنَّ طبيعة طرحنا التي تنبع من منطق لغويّ لسانيّ ستجعلنا نقتفي أثرها في اللّغة وباللّغة فقط، هذا مع الاستنجاد بكلِّ ما هو فكريّ حضاريّ كلّما اقتضت الضَّرورة ذلك.

وقد يُوهم عنوان هذا المقال بأنَّنا نحاكم بنية اللّغة العربيَّة في حدّ ذاتها بما يرشّح كونها لغة نشأت ذات بُعد ذكوريّ منذ الأزل، أي أنَّه «قدر ميتافيزيقيّ»[1] على حدّ قول نصر حامد أبي زيد، إلّا أنَّ الأمر غير ذلك، فنحن ننطلق من كون الخطاب العربيّ، قديماً كان أو حديثاً في علاقته باللّغة، هو الذي يحمل منطقاً ذكوريًّاً، فلا نتصوَّر صياغة للخطاب بمعزل عن اللّغة الحاملة له، ومن هنا تُعدُّ دراسة بنية اللّغة العربيَّة في منطقها الذّكوريّ دراسة لنسق فكريّ كامل يتَّسم بتفاعل ثقافيّ متعدّد الأبعاد ساهم في بلورة ملامح ذكوريَّة للّغة العربيَّة جعلتها لغة الذَّكَر بامتياز.

وبناء على هذا تلحُّ علينا مجموعة من الأسئلة مفادها: هل انتصرت اللّغة العربيَّة للذَّكَر على حساب الأنثى؟ أين تتجلّى ملامح البُعد الذّكوريّ في بنية اللّغة العربيَّة؟ ما الأسباب الدَّافعة لذلك؟ أنحاكم اللّغة أمْ الخطاب؟ أليست اللّغة في انتصارها للذَّكر قد حافظت على البُعد التَّداوليّ السياقيّ بما يخدم الخطاب الفكريّ والسياسيّ في تلك الفترة؟

1- نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة، ص 29.

1. ذكوريَّة الخطاب اللّغويّ من ذكوريَّة الثقافة

أشرنا في توطئة هذا المقال إلى أنَّ تعقّب ملامح البُعد الذّكوريّ في بنية اللّغة العربيَّة ليس بمعزل عن الخطاب العربيّ المتحدّث بهذه اللّغة قديماً كان أو حديثاً وما يحفُّ به من ملابسات ثقافيَّة وفكريَّة وحضاريَّة، وهي إشارة تُعدّ بمثابة المنطلق النَّظريّ الذي يحرّك موضوع بحثنا هذا، فنحن على وعي بأنَّ ذكوريَّة الخطاب، ومنها ذكوريَّة اللّغة في حدّ ذاتها، نتاج لوعي ثقافيّ كامل يجعل من مركزيَّة الذَّكَر أسَّاً للحركة والتَّعبير وإنتاج الثقافة.

وليس من الصعب أنْ نظفر بحجج تدعم أطروحتنا هذه، فقد أسعفتنا كثير من الكتابات في هذا الشأن ولا سيَّما النَّسوية منها، والتي ما فتئت تبرز هذا النفوذ الذّكوريّ[2]على حساب الأنثويّ داخل الثقافة العربيَّة، فلم يعد هناك من شكّ أنَّ الخطاب العربيّ في صورته العامَّة يُمارس نوعاً من العنصريَّة ضدَّ جنس الأنثى، وهذا يتجلّى في كثير من الممارسات الحياتيَّة ويتخذ أبعاداً عدَّة.

ويمكن في هذا السّياق من الحديث أنْ نعرض جملة من المظاهر التي تعكس ذكوريَّة الثقافة العربيَّة وتؤكّد سطوة الخطاب الذكوريّ وأحاديته في مقابل غياب لغة الأنثى، بحيث أرجع الكثير من الباحثين ذكوريَّة الثقافة إلى تصوُّرات ضاربة في القدم منذ النشأة الأولى، وهي تصوُّرات تربَّت تحت مظلّة الأسطورة والخرافة، وليس لنا في هذا المقال أن نتوسَّع في ذكرها، ولكن يهمّنا أن نقف على تأثيراتها في الثّقافة العربيَّة ما دمنا نعالج بنية اللّغة العربيَّة.

ولك أن تعود إلى التَّصوُّرات حول خروج آدم وحواء من الجنَّة ودور حوَّاء وفاعليتها في هذا الحدث، فالعقل الجمعيّ العربيّ تربَّى تحت اعتقاد أنَّ حوَّاء هي من أخرجت آدم، هذا برغم أنَّ القرآن أورد القصَّة في عموميتها ممَّا جعل البعض يقرُّ بأنَّها تسرَّبت من الرّوايات وأثّرت في بعض التفاسير[3]، وقد وصلت تمظهرات هذه الرّواية إلى حدّ توصيف حوَّاء بالحيَّة، وهو توصيف اشتقاقي في الجذر اللّغوي مروراً برمزيَّة الحيَّة في هذا السياق باعتبارها حيواناً مخاتلاً، وتلتقط مسامعنا في الواقع اليومي «أنَّ فلانة أفعى»، وهو تعبير قديم كما أشرنا سلفاً.

ما يهمُّنا من عرض هذه الفكرة أنَّ المسؤوليَّة في هذا الخروج من الجنَّة يقع على عاتق حوَّاء وحدها، وقد انعكس هذا على الثقافة السائدة في تلك الفكرة وما انجرَّ عنه من تحميلها عواقب هذا الفعل، ونرى انعكاسات هذا فيما بعد ضمن الخطاب العربيّ، وخصوصاً في مرجعيَّته الإسلاميَّة تحت مقولة عامَّة تحمل

2- سيلاحظ القارئ أنّنا نستعمل مصطلح ذكر مقابل أنثى دون ذكر مصطلح "رجل" الذي يحمل دلالة تجمع الجنسين.

3- راجع في هذا الصدد: نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة، ص 18.

عنصريَّة ضدَّ جنس الأنثى، نخصُّ على سبيل الذكر: «ناقصات عقل ودين»، وهي، لعَمري، مقولة تحمل خلفيَّة ذكوريَّة وتمارس نوعاً من الظلم والعنف الرَّمزي الذي يحطّ من قيمة الأنثى ويؤسّس للبُعد الذّكوريّ في صلب الثّقافة السائدة، وتعتبر هذه المقولة المشحونة بذكوريَّة مفرطة جناية معلنة ضدَّ الأنثى وتأسيساً لهيمنة الذَّكَر[4].

وتجد هذه الأطروحة مبرّراتها في أبعاد التفاسير من كون حوَّاء قد نشأت من ضلع آدم، وهو نشوء يجعلها تعود إلى أصل، ونرى في هذا السياق أنَّ هذا الطرح يقف عند حدود السَّطح في تحليله للآية (خلق منها زوجها)، فالخلق هنا قد يكون معنويَّاً باعتبار أنَّ الزَّوج يماثل زوجه وليس مشتقاً منه.

وليس أدلّ على النزعة الذّكوريَّة للثقافة العربيَّة من دعوات بعض الكتَّاب قديماً لمنع المرأة من كثير من الحقوق، لعلَّ أبرزها الفعل اللّغويّ، فصاحب اللّزوميَّات نجد له أشعاراً تنادي لسلب حقّ الكتابة والقراءة من المرأة، يقول:

علِّموهُنّ الغَزْلَ والنَّسْجَ والرَّدْ ... نَ وخَلّـو كِتَابَـــةً وقِـــراءه
فصَلاةُ الفَتَـــاةِ بالحمدِ والإخـْ ... لاصِ تُجزي عن يونُس وبَراءه[5]

وفي الخطاب العربيّ المعاصر نجد هذه التفرقة الجنسويَّة ضاربة في عمقه، فليست الدَّعوة لحصر وظيفة المرأة في مشاغل البيت وجعلها خاضعة لسلطة الرجل تحت دعوى «الطّاعة» إلّا ضرباً من ضروب الخطاب المنجرح في الهويَّة، وهو يعكس تفوُّقاً جنسويَّاً، إن صحَّ التَّوصيف. وقد يذهب البعض إلى أنَّ هذا الخطاب مدعوم بخلفيَّة دينيَّة إسلاميَّة ترى أنَّ المرأة لا بدَّ أنْ تُطيع زوجها، ممَّا يرسّخ عموديَّة العلاقة بين آمر ومأمور وذكر وأنثى وقوي وضعيف، في حين نراه (الخطاب الدّيني) يؤسّس لمنطق المساواة العادلة بينهما، وهذا لا يمكن أن نصل إليه إلّا بنزع لبوس الذّكورة الذي يتخفَّى وراءه الكثير. يقول أبو زيد في هذا الصدد: «هكذا تصبح الدَّعوة إلى طاعة المرأة للرَّجل محور الدَّعوة الإسلاميَّة فيما يتَّصل بحقوق المرأة، لكنَّها في الواقع دعوة عامَّة في المجتمع المنجرح ذكوريَّاً بتأثير الطّعنات المتكرّرة والعجز عن التَّصدي لها، فيلجأ الرَّجل المنجرح لممارسة سطوته على المرأة»[6].

هذا التَّصوُّر يجعلنا نخلّص النَّصَّ من وهم الذّكورة ونعلّقه بالخطاب المتكلم عنه، فليس البُعد الذّكوريّ المتجلّي في الخطاب الإسلامي هو النَّصّ نفسه، وإنَّما اجتهاد أصحابه وخلفيَّاتهم الذّكوريَّة، وتتجلّى الأبعاد

4- نشير في هذا السياق من الحديث إلى كتاب "الهيمنة الذكوريَّة" بيار بورديو، الذي درس فيه البنى الموضوعيَّة والمعرفيَّة لمجتمع المركزيَّة الذكوريَّة على حدّ قوله. (انظر الهيمنة الذكوريَّة، بيار بورديو، ترجمة سلمان قعفراني، مراجعة ماهر تريمش، المنظمة العربيَّة للترجمة بيروت، 2009، ط1).

5- أبو العلاء المعرّي، لزوم ما لا يلزم، اللزوميَّات، المجلّد الأوَّل، ص 63، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1961.

6- نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة، ص 44.

الذّكوريَّة في الثقافة العربيَّة ضمن جملة من الممارسات الأخرى نراها بأمّ أعيننا في الواقع اليومي، فافتح عينيك لدعاوى منع المرأة من سياقة السيارة أو من حقّها في التنظّيم الحزبي ووصفها «بالعهر الأخلاقي»، هذا بخلاف ما شهدته السَّاحة العربيَّة في يوم ما من تهجُّم على هذا الجنس ومنعه من حقّه في العمل، ولك أن تتبصَّر في أسمائنا وألقابنا التي نُنسَب[7] فيها للآباء وحدهم دون النساء، وكأنَّ الذَّكَر أحقّ بهذه الأهليَّة من الأنثى، وقد يبلغ بالبعض إلى حدّ التهجُّم عليك إنْ نسبته إلى اسم أمّه.

وبهذا فإنَّ الثقافة مارست عمليَّة «الوأد الثقافيّ ضدّ الأنثى»[8]، على حدّ تعبير الأستاذ عبد الله الغذّامي، وهو وأد مجازي سليل الوأد الحقيقي الذي مُورِسَ في القديم، ولم تكن الثّقافة العربيَّة استثناء في الذّكورة ضمن ثقافتها، بل هي -إذا ما تحرَّينا الموضوعيَّة في القراءة- سليلة ثقافات مضتْ، ونشهد اليوم هذا البُعد الذّكوريّ في صلب الثّقافة الغربيَّة، وتجلّى ذلك أيضاً في منظومتهم اللّغويَّة، فقد أورد الغذامي[9]مثلاً بعض العبارات التي يحتلّ فيها الذّكَر اشتقاقيًّا نصف ملامح الأنثى، فمصطلح (woman) هو مصطلح مُركَّب من (wo+man)، وهذا ما يجعل نصف اسم الأنثى رهين الذّكَر.

كلُّ هذه الإشارات التي سقناها بشكل برْقي مخافة الخروج عن أصل الحكاية من هذا المقال تُنبئ عن البُعد الذّكوريّ في الثّقافة العربيَّة، وهو لا شكَّ له أثر على طبيعة الخطاب، فالخطاب اللّغوي الذكوريّ مولود من رحم الثقافة السائدة التي تتكلّم بلغة الذّكر بامتياز، وضمن هذا تأتي الأنثى متأخّرة عن هذا الفعل بعد أن رسمت الثقافة معالمه الذكوريَّة. يقول الغذّامي في كتابه المرأة واللّغة: «وهنا تأتي المرأة إلى اللّغة بعد أن سيطر الرجل على كلّ الإمكانات اللّغويَّة وقرَّر ما هو حقيقي وما هو مجازي في الخطاب التعبيري»[10].

2. تجلّيات الذكوريَّة في بنية اللّغة العربيَّة

تبيَّن لنا ممَّا سلف ذكره أنَّ الثّقافة الذّكوريَّة فعلت فعلها في الخطاب اللّغويّ، وهذا طبيعي ما دام الخطاب لسان هذه الثّقافة ووريثها الشرعيّ، غير أنَّ هذا الإقرار قد يحجب عنَّا ما في بنية اللّغة العربيَّة في حدّ ذاتها من ملامح ذكوريَّة ممَّا يرشّح أنَّها لغة الذّكَر بامتياز، وهذا ما سنعمل على تشريحه بالوقوف عند تجلّيات هذه الذّكوريَّة وشحذها لكامل الوسائل والحجج اللّغويَّة لتنقية قلعة الذّكورة من شوائب الأنثى، والتّأسيس في الأخير للطائفيَّة الذّكوريَّة في بنية اللّغة العربيَّة.

7- قضيّة النَّسب أو التسمية أشار إليها الغذامي في كتابه المرأة واللّغة، وهي قضيَّة على حدّ قوله طرحتها دوروثي دينرشتاين. (للتوسُّع، انظر: المرأة واللّغة، ص 29).

8- عبد الله الغذّامي، المرأة واللّغة، ص 17، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، 2006، ط3.

9- المرجع السابق، ص 22.

10- المرجع السابق، ص 7.

1.2. التأنيث في مواجهة جمع المذكّر السَّالم: لا يدخلنّ علينا من لم يكنْ عاقلاً

تقترح اللّغة العربيَّة على لسان شيوخها الأوائل جملة من الشّروط في قضيَّة جمع المذكّر السَّالم، من بينها العَلَميَّة والمذكّر والعاقل والخالي من تاء التأنيث، يقول ابن عقيل في حديثه عن جمع المذكّر السالم: «فيشترط في الجامد: أن يكون عَلماً، لمذكر، عاقل، خالياً من تاء التأنيث، ومن التَّركيب...»[11]، والمتتبّع لهذه الشّروط المجحفة يُدرك الخلفيَّة الذّكوريَّة، والغريب هنا إقحام تاء التأنيث ضمن هذه الشروط ممَّا يجعلها تقابل الذّكورة من ناحية وتقابل العاقل من ناحية ثانية، فكأنَّ إقحام العاقل شرطاً من شروط قبوله جمع المذكّر السالم اعتراف بعدم وجود الأهليَّة في الأنثى ما دامت قد جُمعت معه، وقد لمحنا ذلك في تحليل ابن عقيل، فانظر ماذا يقول: «وإن كان عَلماً لغير مذكَّر **(يقصد أنثى)**[12] لم يجمع بهما، فلا يقال في زينب زينبون، **وكذا إن كان علماً لمذكَّر غير عاقل**»[13]، ومن هذا الإبراز الأخير الذي وضعناه في شاهد ابن عقيل يتبيَّن لنا كيف يساوي بين العَلم المذكّر غير العاقل والعَلم المؤنث العاقل، وهي مساواة تنبع من عقليَّة ذكوريَّة تحطُّ من قيمة الأنثى وتُعلي من قيمة الذّكَر. أليست هذه ثقافة الذّكَر حين يعلّل الظواهر؟ أليس النّحاة انعكاساً لتلك الثقافة السائدة، ممَّا جعلهم ينتصرون في تعليلهم للذّكَر على حساب الأنثى؟

«**لا يدخلنَّ علينا من لم يكنْ عاقلاً**» هذا شعار بنية اللّغة العربيَّة في قضيَّة جمع المذكّر السالم، فهي وإنْ لم تقله صراحة إلّا أنَّنا نتحسَّسه ضمناً حين يتماهى العَلَم المذكّر غير العاقل مع العَلَم المؤنث العاقل، لتطفوَ من ورائه ذكوريَّة مُفرطة تتبنَّى «ناقصات عقل ودين» شعاراً لها، ممَّا يجعلها تعلّل اشتغال اللّغة تحت طائفيَّة عنصريَّة. يقول الغذّامي: «وهنا يحقُّ للمجنون والطفل وكذا الحيوان الذكي أن يدخل إلى قلعة المذكّر السَّالم، أمَّا الأنثى، فلا يجوز لها الاقتراب من هذا الحقّ الذّكوريّ الخالص»[14].

ولا تقف اللّغة العربيَّة عند هذا الحدّ في قضيَّة إقصاء المؤنث من فضاء جمع المذكّر السَّالم، بل تجاوزت ذلك إلى الصّفات، فيشترط ابن عقيل نقلاً عن صاحب الألفيَّة «أنْ تكون صفة، لمذكَّر، عاقل، خالية من تاء التأنيث»[15]، وكالعادة فإنَّ التأنيث مانع من الموانع، وليس هذا فقط بل يُقحم أيضاً ما يستوي فيه المذكَّر والمؤنث، وقد يُسمح للمؤنث أن يلتحق بجمع المذكّر السَّالم والمكوث تحت ظلاله بشرط أنْ يكون وضع لمؤنث وسمّي به مذكّر، يقول السّيوطي في تحليله خلوّ جمع المذكّر السَّالم من تاء التأنيث: «أن يكون خالياً من تاء التأنيث سواء لم يوضع لمؤنث أصلاً كأحمد وعمر أم وضع لمؤنث ثمَّ سُمِّي به مذكّر. قال أبو

11- ابن عقيل بهاء الدين عبد الله، شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك، الجزء الأوّل، تأليف محمَّد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريَّة للطباعة والنشر، صيدا، بيروت ص 61.

12- الإبراز من عندنا.

13- السابق، ص 61.

14- عبد الله الغذامي، المرأة واللّغة، ص 25.

15- ابن عقيل بهاء الدّين، شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك، الجزء الأوَّل، ص 62.

حيان: فلو سميَّت رجلاً زينب أو سلمى، جمع بالواو والنون بإجماع، اعتباراً بمسمَّياتها الآن، فإن لم يخلُ منها لم يجمع بها»[16].

وفي إطار الحديث عن الجمع في بنية اللّغة العربيَّة تستوقفنا مسألة مُهمَّة تعكس جوانب ما نحن بصدد الحديث عنه، وهي قضيَّة **تذكير المؤنث**- والإبراز من عندنا- والمقصود بها أنَّ هناك كثيراً من الألفاظ المؤنثة في اللّغة العربيَّة يقع تذكيرها، وقد يعْترض البعض بتعلّة وجود مبحث أيضاً يُسمَّى «تأنيث المذكّر»، ممَّا قد يسوّغ المساواة في الطَّرح، فنقول برغم ذلك فقد جعل النّحاة التّذكير هو الأصل والتأنيث فرعاً له، فانظر إلى المؤسّس الأوَّل سيبويه ماذا يقول في هذا الشأن: «إنَّما كان المؤنث بهذه المنزلة ولم يكن كالمذكّر لأنَّ الأشياء كلّها أصلها التّذكير ثمَّ تختصُّ بعدُ، فكلُّ مؤنث شيء، والشيء يُذكّر، فالتّذكير أوَّل، وهو أشدّ تمكّناً»[17]، ويتواصل هذا الطرح مع بقيَّة النّحاة العرب ضمن تعليلهم للظّواهر، فابن جنّي في خصائصه يعلن عن هذا المبدأ أيضاً بقوله: «وتذكير المؤنَّث واسع جدًّا، لأنَّه ردُّ فرع إلى الأصل، ولكنَّ تأنيث المذكّر أذهب في التناكر والإغراب، وسنذكره»[18].

ولو تمعَّنا في كلام ابن جنّي وفتَّشنا في داخله عن بعض الخبايا التي تفهم من قوله، فسنرى أنَّه يكشف عن البُعد الطّائفيّ الذّكوريّ، ونقف هنا على بعض منها، فقوله: «ردّ فرع إلى الأصل» فيه نوع من الكبرياء الذّكوريّ، فكان الأرجح أن يقول: «ردّ فرع إلى أصل» بدون ورود كلمة الأصل بالألف واللّام، وسنفهم من سياق الحديث أنَّه يتحدَّث عن التَّذكير، ولكنَّه أوردها مُعَرَّفة إعلاء من قيمة هذا الأصل.

وفي الجزء الثاني من الشَّاهد الذي أوردناه نلاحظ صاحب الخصائص يعبّر بنوع من الاستغراب في هذا المبحث، وكأنَّه يعترض على ردّ المذكّر إلى المؤنث، وتبرز نعرته الذّكوريَّة في خصوص ذلك، وقد نغامر أكثر في إثبات البُعد الذّكوريّ عند ابن جنّي من خلال توزيعه للمباحث والفصول، فهذا الذي كنّا بصدَد الحديث عنه (تذكير المؤنث) يضعه ابن جنّي ضمن فصل سمَّاه «الحمل على المعنى»، أي أنَّك إذا وجدْت مؤنثاً في حال تذكير، فاحمله على معناه، وهنا كأنَّنا بالتَّذكير هو المعنى والتأنيث هو اللّفظ، وهي وجهة نظر تُعلي من قيمة المعاني في مقابل الألفاظ، وتعكس فلسفة الذَّات والموضوع والرُّوح والجسد، ليتحوَّل الذَّكَر إلى معنى والأنثى إلى لفظ، ومجرَّد وعاء يصبُّ فيه الفحل جاه فحولته، وهي فلسفة الثقافة الذّكوريَّة بامتياز.

16- جلال الدّين السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، الجزء الأوَّل، تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام هارون والأستاذ الدكتور عبد العال سالم مكرم، نشر عالم الكتب، القاهرة، 2001، ص 151.

17- سيبويه، الكتاب، الجزء الثالث، تحقيق وشرح عبد السَّلام محمَّد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1992، ص 241.

18- ابن جنّي، الخصائص، الجزء الثاني، ص 415.

وتنحدر أصليَّة التَّذكير في مقابل فرعيَّة التأنيث من فرضيَّة عامَّة حكمت النَّظريَّة اللّغويَّة العربيَّة، وهي فرضيَّة الأصل والفرع، فقد مثّلت المعيار في وصف الظّواهر اللّغويَّة. يقول الشيباني: «ليس من العسير أن نجد اللّغويين العرب عامَّة يذهبون إلى القول إنَّ لكلّ قسم من أقسام الباب الواحد من علومهم «رأساً» و«أُمَّاً» و«أوَّلاً»، وأنَّ له في مقابل ذلك «تابعاً» و«ثانياً»، فضلاً على هذا رأوا أنَّ لكلّ أصل فرعاً يشتقُّ منه وطارئاً يُردُّ عليه ولاحقاً يُسند إليه ويُبنى عليه. وعلى وجه الإجمال، فإنَّ لكلّ سابق متقدّماً يكون قبله في الرُّتبة والاعتبار»[19].

والحاصل أنَّ قلاع جمع المذكَّر السالم التي تعكس ذكوريَّة اللّغة حصينة بما شحذه لها أرباب اللّغة من تعلّات ذكوريَّة أقصت الأنثى وجعلتها خارج مدار اللّغة إلّا في بعض الاستثناءات، وحتَّى في صُلب هذه الاستثناءات لا تغزو الأنثى حصون الذَّكَر إلّا وفق شروطه وإملاءاته، ووفق ما تتحرَّك به الثقافة من خلفيَّات ضدَّ جنس الأنثى، فانظر إلى القهر اللّغوي الذي يمارسه الذَّكَر إذا حلَّ ضيفاً على جمع مؤنث سالم، فقد وفّرت له اللّغة من السّمات ما يجعله يؤثّر في هذا الجمع فيحوّله مُذكَّراً، ولا يهمُّ آنذاك العدد، فحتى لو كانوا عشرين أنثى وبينهم ذكر واحد نُعِتوا جمعاً مذكَّراً سالماً، كلُّ هذا جعل الأنثى تمارس كلَّ صنوف النّضال في مواجهة جمع المذكّر السالم. فهل ستواصل الأنثى النّضال، أم أنَّ هناك عقبات أخرى في الانتظار؟

2.2. التأنيث وانجراح هويَّة التّنوين في اللّغة

تُعدُّ جنَّة التَّنوين حلماً صعب المنال أمام نضالات التَّأنيث، فبنية اللّغة العربيَّة تحرم الأنثى حقَّها من التَّنوين، وقد يتساءل البعض ما سرُّ هذا التَّنوين في اللّغة حتى يكون بمثابة الفردوس الأعلى الذي يسعى البعض لبلوغه؟ نقول لهم: إنَّ التَّنوين في العُرف اللّغويّ دخول ساحة التمكّن في الاسميَّة أو ما سمَّاه النُّحاة «تنوين التمكين»، وهذا ما يجعل سماته خالصة لا تشوبها شبهة، والتَّنوين في اللّغة «نون زائدة ساكنة تلحق الآخر لغير توكيد»[20]، وهي نون تُثبت لفظاً وتسقط كتابة.

وبناء على عقليَّة التمكّن في الاسميَّة وقع إقصاء المؤنث من التَّنوين -باستثناء حالات- بتعلّة أنَّه يخالط الأسماء العربيَّة الخالصة، فالتأنيث في الوعي النَّحويّ بمثابة العيب بحيث جعلوه مقياساً في التفريق، فانظر في حديث الزَّمخشري عن لفظ «عرفات» في الآية الكريمة (فإذَا أفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ) (البقرة، الآية 198)، يقول ابن هشام الأنصاري: «زعم الزَّمخشري أنَّ «عرفات» مصروف (أي تنوين تمكين) لأنَّ تاءه ليست للتأنيث، وإنَّما هي والألف للجمع، وقال: «ولا يصحُّ أن يقدَّر فيه تاء غيرها، لأنَّ هذه التاء لاختصاصها بجمع

19- محمَّد الشيباني، من قضايا تصنيف الأعمال اللغويَّة (مشروع قراءة)، ط1، مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، 2015، ص 314.

20- ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، الجزء الخامس، ط1، تحقيق وشرح الدكتور عبد الطيف محمَّد الخطيب، السلسلة التراثيَّة، الكويت 2000، ص 268.

المؤنث تأبى ذلك، كما لا تُقدَّر التاء في «بنت»، مع أنَّ التاء المذكورة مُبْدَلَةٌ من الواو، ولكنَّ اختصاصها بالمؤنث يأبى ذلك»[21].

والمتابع لهذا التَّعليل من قبل الزَّمخشري يلحظ البُعد الذُّكوريّ، لا سيَّما كلّما تعلّق الأمر بالأنثى، فنراه يعلّل التَّنوين والصَّرف في كلمة «عرفات» بأنَّ التاء فيها ليست للتأنيث، وكأنَّ التأنيث جُرْم في حّق اللّغة، وشبهة من شبه تلطيخ الهويَّة الاسميَّة الخالصة.

وقد ذهب أرباب اللّغة في متون كتبهم إلى تعليل الظّواهر اللّغويَّة بمنطق ذكوريّ، ففي حديث ابن مالك عن العَلَم المؤنَّث بالتَّاء وبدونها نرى ملامح الطّرح الذّكوريّ طاغية، فالاسم المؤنَّث يُمنع من الصَّرف والتّنوين ويُجمع في الأغلب الأعمّ، وفي كثير من سياقات التّعليل مع الأعجميَّة، يقول شارح ألفيَّة ابن مالك متحّدثاً عن أسباب منع العلم المؤنث: «أو يكون أعجميًّاً نحو: جور اسم بلد، لأنَّ العجمة لمَّا انضمت إلى التأنيث والعلميَّة تحتَّم المنع»[22].

وقد تطفو النَّزعة الذّكوريَّة من خلال ظاهرة الممنوع من الصَّرف والتَّنوين أكثر حين نلاحظ شيوخ النَّحو يعلّلون المنع من التَّنوين للاسم المؤنَّث المنقول من المذكَّر، يقول المرادي: «أو منقولاً من مذكَّر نحو «زيد» إذا ما سُمّي به امرأة، لأنَّه حصل بنقله إلى التأنيث ثقل عادل خفة اللّفظ»[23]. وليس هذا فقط، وإنَّما يُمنع من الصَّرف والتَّنوين كلّ ما اقترب من دائرة التأنيث فصاحب الكتاب[24]يجيز انصراف الصّفات التي على وزن فعلى إن كانت ألفها لغير التأنيث، أمَّا إن كانت ألفها للتأنيث، فإنَّها تُمنع، ويتعمَّق سيبويه أكثر في التعليل الذّكوريّ حين يتعرَّض أيضاً لباب «ما لحقته ألف التأنيث بعد ألف»[25]، ويصرّح بأنَّ ذلك منعه من الانصراف في النكرة والمعرفة. وبالعودة إلى الكتاب ترى أنَّ جلَّ تعليلات سيبويه في قضيَّة الصَّرف والتَّنوين هي تعليلات ذكوريَّة، وأحياناً يعلنها صراحة حاملة معها آنفة الذكر، يقول سيبويه: «ذلك أنَّ المذكَّر أشدّ تمكّناً، فلذلك كان أحمل للتنوين»، «هذا بابُ ما ينصرف في المذكَّر البتّة ممَّا ليس في آخره حرف التأنيث»[26].

شعار سيبويه ومن تبعه من النّحاة هو: «إنَّما كان المؤنث بهذه المنزلة ولم يكن كالمذكَّر، لأنَّ الأشياء كلّها أصلها التذكير ثمَّ تختصُّ بعدُ، فكلُّ مؤنَّث شيء، والشيء يذكَّر، فالتذكير أوَّل وهو أشدُّ تمكّناً»[27]، وعليه

21- المرجع السابق، ص 269.

22- المرادي حسن بن قاسم، شرح الألفيَّة لابن مالك، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، دار مكتبة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الجزء الثاني، ص 94.

23- السابق، ص 95.

24- سيبويه، الكتاب، الجزء الثالث، ص 205.

25- المرجع السابق، الجزء الثالث، ص 213.

26- المرجع السابق، الجزء الثالث، ص 220. 221.

27- المرجع السابق، الجزء الثالث، ص 241.

يمكن القول إنَّ الأصليَّة والفرعيَّة هي التي حكمت هذه القسمة الضيزى، بحيث تحوَّلت المرأة، حسب عبارة صاحب الكتاب، إلى شيء في قوله: «كلُّ مؤنَّث شيء»، وبالتَّالي فهي تابعة للمذكَّر ذليلة له.

وترتسمُ ملامح البُعد الذّكوريّ أكثر من خلال إقصاء الأسماء الأعجميَّة من ساحة التَّنوين، وهي ساحة كما أسلفنا الذّكر في سمة التمكّن في الاسميَّة، ويهمُّنا من العجمة ارتباطها في المنع مع التأنيث، في الثقافة اللّغويَّة العربيَّة المسنودة بثقافة الوعي الجمعيّ العربيّ، فتلك اللّحظة تمارس عنصريَّة ضدَّ من هم خارج أطر جنس العرب، ووراء هذه العنصريَّة تنبثق عنصريَّة أخرى ضمن ثنائيَّة: ذكر أنثى، فإقحام الاسم المؤنث مع الأسماء الأعجميَّة في منعها من الصَّرف والتَّنوين يعكس طائفيَّة مقيتة ضدَّ الأنثى وإنْ كانت عربيَّة، ويُرشّح في المقابل أحاديَّة الذّكورة في أوج تجلّياتها، ولا سيَّما من خلال المعطى اللّغويّ اللّسانيّ، يقول أبو زيد: «في هذه التسوية بين المؤنَّث العربيّ والمذكَّر الأعجمي نلاحظ أنَّ اللّغة تمارس نوعاً من الطائفيَّة العنصريَّة لا ضدَّ الأغيار فقط بل ضدَّ الأنثى من الجنس نفسه كذلك»[28].

وبناءً على هذا، تجد الأنثى نفسها أمام عقبة أخرى وضعتها لها بنية اللّغة العربيَّة وهي «عقبة التَّنوين»، لتحرمها حقَّها في مساواة الرَّجل، وعليه تكون الأنثى أسيرة الطَّرح اللّغويّ العربيّ في مستوى بنيته وتعليلات نُحاته، وقد تكون في بنية هذه اللّغة مظاهر أخرى للبُعد الذّكوريّ ربَّما غفلنا عنها أو لم تُسعفنا عقولنا متعة التوقّف عندها، غير أنَّنا اجتهدنا في طرق ملامح البعض منها من هنا وهناك ضمن أمَّهات الكتب والأشعار والأخبار.

3.2. بعض القضايا الأخرى لذكوريَّة اللّغة العربيَّة

توقَفنا فيما سبق بيانه عند بعض تجليَّات البُعد الذّكوريّ في بنية اللّغة العربيَّة، وذلك ضمن مبحثين اثنين: (جمع المذكَّر السالم/ الممنوع من الصرف والتَّنوين) وقد رأينا فيهما أنَّ هذا البُعد يتجلّى بصورة واضحة ودون ادّعاء قد يسقطنا في محاكمة ظالمة لهذه اللّغة. غير أنَّنا لم نركن عند هذا الحدّ، بل رُحنا نفتّش في بعض القضايا الأخرى التي وردت مُشتَّتة في بعض الأحيان أو ما تعلّق باللّغة بصفة غير مباشرة كالشّعر أو اللّحظات التاريخيَّة العابرة.

وضمن هذا جاء هذا العنصر الذي سنتحدث فيه عن الدَّور السلبي للتأنيث شكلاً ومضموناً، وهو دور ألبسته المدوّنةُ اللّغويَّة العربيَّة للأنثى عن غير طيب خاطر، وإنَّما تحت شحنة ذكوريَّة نزعم أنَّها محور هذا المقال وأساس فكرته.

28- نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة، ص 30.

- أليست نون النسوة من أبقت على مظاهر البناء في الفعل المضارع؟

هذا الاستفهام المنفي قد نطمح من خلاله إلى إجابة تقريريَّة، فنقول: بلى إنَّ نون النّسوة هي من عطّلت رحلة فعل المضارع من عوالم البناء التي هي في الأصل عوالمه، باعتبار أنَّ الأفعال في اللّغة العربيَّة حقّها البناء، فالفعل المضارع أراد أن يخرج من صلب هذه المنظومة (البناء) توَّاقاً إلى الإعراب الذي يمثّل أصل هذه اللّغة فحرمته نون النسوة مع نون التوكيد حقه من ذلك، بحيث مثّلت عائقاً في طريقه، فكيف ذلك؟

لمَّا كانت اللّغة العربيَّة لغة مُعربة في أساسها، فإنَّ مملكة الإعراب أعظم شأناً من دوائر البناء، ووفق هذه الهندسة فإنَّ ظواهر اللّغة العربيَّة تتجاذبها هذه الثنائيَّة، وقد لمحنا في إطار هذا بُعداً ذكوريَّاً في التّعليل، فخذْ على سبيل الاجتهاد -وقد نكون مخطئين- رحلة الفعل المضارع الذي سعى إلى ترك مقاعد البناء والهروب إلى مملكة الإعراب، وانظر لشأن نون النّسوة التي حرمته من ذلك، يقول ابن عقيل في شرح ألفيَّة ابن مالك: «ونقل المصنّف رحمه الله في بعض كتبه أنَّه لا خلاف في بناء الفعل المضارع مع نون الإناث»[29].

ونفهم من كلام شارح الألفية أنَّ نون الإناث أو ما يُسمَّى نون النّسوة عليها إجماع في كونها تمنع الفعل المضارع الذي أصله البناء من أن يلتحق بمملكة الإعراب، وهذا الإجماع دليل على كون نُون النّسوة قد لعبت دوراً سلبيَّاً في رحلة البحث التي يخوضها الفعل المضارع، فهي قد حرمته من حقّه الكليّ في الإعراب وأبْقَتْ على مظاهر البناء فيه، وبهذا فإنَّ الوعي التّعليليّ عند النّحاة فيما يخصُّ التأنيث يتحرَّك تحت مظلة الذّكورة، ونحن إذْ نطرح هذا التحليل لسنا متيقنين تماماً من صحَّة ما نقول، فقط نحن نخوض غمار مسألة يكتنفها بعض الغموض في كثير من مسائلها، ولذا فهذا الذي نسوقه يبقى في إطار الزَّعم والافتراض، لأنَّ نون النّسوة قد تكون كُلّفت بهذا الدور لتشويه صورتها وإقحامها في معركة ليس لها فيها الوسائل الكاملة لإثبات موقعها، وبهذا فهي تحت مطرقة اللّغة العربيَّة وسندان القارئ وتُهمِه.

- الأنثى خطيب مبتذل ورمز للعيّ

تسير بعض مظاهر الذّكوريَّة في الفكر اللّغويّ العربيّ جنباً إلى جنب مع بنية اللّغة ومنطقها الفحوليّ، فتراها تنبثق منه وترتكز عليه في بعض الأحيان، وقد رأينا أنْ ننظر في نوع من أنواع النثر العربيّ وتحديداً ضمن «الخطبة» لتحسّس مركزيَّة الذّكورة الطّاغية والإقصاء الممنهج ضدَّ الأنثى، وصلَ إلى حدّ استبعادها من دائرة الخطيب الذي يُمارس الفعل اللّغويّ ويعكس صلابة الفحل الذي يُوجّه الخطاب.

29- ابن عقيل بهاء الدين عبد الله، شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك، ص 42.

وقد يتساءل البعض: أين يمكن أنْ نحصّل ذلك؟ أين تتجلَّى الذّكوريَّة في الخطبة؟ هل أقصت كُتب اللّغة الأنثى من ممارسة حقّها الخطابيّ ومنه حرمانها من الإبداع؟

نقول إجابة عن هذا: نعم، لقد التمسنا طائفيَّة ذكوريَّة عنصريَّة ضدَّ الأنثى. خذْ على سبيل الذّكر لا الحصر مصنَّف الجاحظ «البيان والتبيين» باعتباره توسَّع في هذا المضمار، -وبعد إشارة من الغذّامي فيما يخصُّ باحثاً اجتماعيَّاً قام بتشريح رؤية الجاحظ حول المرأة- تجد أنَّ الجاحظ في تقسيمه للأبواب ضمن كتابه يجعل باباً بعنوان: «**وكانوا يعيبون النّوك والعيّ والحمق وأخلاق النساء والصبيان**»[30]، ويأتي هذا الباب في تسلسله الترتيبي بعد أبواب أشار فيها الجاحظ إلى حُسْنِ البيان وامتداح الخطب.

وتشير فلسفة الجاحظ في هذا التَّقسيم ضمن كتابه البيان والتّبيين إلى نوع من العنصريَّة اللّغويَّة ضدَّ النساء، ويتجلَّى هذا في نقطتين:

- النقطة الأولى: جعل صاحب البيان والتَّبيين النِّساء في محلّ عطف مع النّوك والعيّ والحمق، وهي صفات الخطيب المبتذل، ويعطف عليها أيضاً الصّبيان في مرحلة ثانية، وهي إشارة منه -ولعلنا مخطؤون- إلى أنَّ النساء لم يكتمل نضجهنَّ العقلي ممَّا يجعلهنَّ في مرتبة الصبيان، وهذه الطائفيَّة من خلال جمع المرأة مع الحيوان أو الصّبيان كعلامة لقلّة وعيها نجدها تتسرَّب في الرّوايات المنسوبة للرسول زوراً، مثل إقحام المرأة مع الكلب الأسود والحمار في منع صلاة الرَّجل.

- أمَّا النقطة الثَّانية، وهي مرتبطة ارتباطاً عضويَّاً بالأولى، فإنَّها تُفصح عن كون النساء ليس من حقّهنَّ بلاغة الكلام، فهي للرجل وحده، أو قلْ للذَّكَر، إنْ صحَّ التّعبير، وقد عبَّر عن ذلك الغذّامي في تحليله لرؤية الجاحظ في هذا الصدد بقوله: «إنَّ اللّسان آلة الفصاحة، وإنْ حصلت عليه المرأة كهديَّة من الرَّجل، فإنَّ شروط استخدام هذه الآلة لا تتوفّر فيها»[31].

- الذكوريَّة باعتبارها معطى ضمنيَّاً في قلم الأنثى

نصل في نهاية هذا المطاف إلى الإقرار بأنَّ هندسة اللّغة العربيَّة في مستوى بنائها قائمة على بُعد ذكوريّ، وقد تجلّى ذلك في كثير من مفاصلها، ومن صلب هذا الإقرار ينبع إقرار آخر نسوقه بتحفّظ، وهو اعتبار الذّكوريَّة معطى ضمنيَّاً في الكتابة عامَّة وفي قلم الأنثى بصورة خاصَّة، وقد يتجلّى لنا ذلك في كثير من أبعاد الكتابة النسويَّة قديماً وحديثاً شعراً كان أو نثراً. فكيف ذلك؟

30- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، الجزء الأوّل، تحقيق وشرح عبد السلام محمَّد هارون، ص 244.

31- عبد الله الغذامي، المرأة واللّغة، ص 39.

قد نظفر بلحظات نسويَّة مارست الفعل اللّغويّ وجسَّدته في الثَّقافة العربيَّة قديماً وحديثاً ضمن أشعار وكتب وروايات، فخذْ على سبيل الذّكر الخنساء الشاعرة المخضرمة التي كانت حاضرة في المدوَّنة العربيَّة، غير أنَّنا نراه حضوراً ضمن ثقافة الذَّكر، فالخنساء ارتبط اسمها بأخيها صخر، ممَّا جعلها سجينة الإبداع الذّكوريّ، أضف إلى ذلك أنَّها ظهرت في أغلب أشعارها حزينة منكسرة ترثي ولا تفعل في وجود فعْله، فهل قُدِّر على الأنثى أن تبقى هكذا حتى في اللّحظات الأكثر تحرُّراً؟

ولو تصفَّحت كتب الأخبار والأشعار، فستجد أنَّ للنساء حضوراً في الثّقافة العربيَّة، ولكنَّه حضور طمس هُوَيتَه البُعد الذّكوريّ، فحرمها حقَّها من القول والتّعبير، رغم أنَّها كانت شاعرة وكاتبة وكانت تفك رموز اللّغة وتُبدع، وهنا تساءل الكاتب مهنَّا عبْد في كتابه «معجم النساء الشَّاعرات في الجاهليَّة والإسلام»: «أين الدواوين التي حفظت تراثهنَّ؟ وأين نصيب أخبارهنَّ وأشعارهنَّ في كتب الأدب وأخبار العرب»؟[32] ونمضي معه في التساؤل حول هذه العنصريَّة اللّغويَّة تجاه الأنثى؟

وانظر من حولك في الكتابات النسويَّة الحديثة، أو ما عُرف بمصطلح «الجندر»، فستجد كثيراً من الكاتبات العربيَّات اقتحمْن مجال الكتابة، نشير -على سبيل الذّكر لا الحصر- إلى نوال السَّعداوي ومي زيادة وأحلام مستغانمي...إلخ، واللَّاتي مارسْن الفعل اللّغوي ضمن الكتابة، ولكنَّها ظلّت ممارسة تحت فلسفة الذَّكر وأبعاده، وتحت هندسة اللّغة في حدّ ذاتها، وفي تعبير جميل للأستاذ عبد الله الغذّامي يقول: «وتأتي المرأة بوصفها نتاجاً ثقافيَّاً جرت برمجته وجرى احتلاله بالمصطلح المذكَّر والشَّرط المذكَّر»[33].

- ذكوريَّة اللّغة في مواجهة واقع الاستعمال

من الواضح أنَّ بنية اللّغة العربيَّة بنية ذكوريَّة بامتياز، سرتْ فحولتها في مفاصل الأدوات التَّعليليَّة، وتحكَّمت الذّكورة في عقول النّحاة والمتكلّمين، وهذا من شأنه أن يجعل كلَّ ما هو طارئ على هذا البناء الأوَّل يجد صعوبة في اختراق مضامينه أو في التَّعامل معه، فليس لكَ أن تزعزع فرضيَّات قاربت المتيافزيقيَّة في التكوين واحتمتْ تحت منطق العصمة من الخطأ. وبهذا كانت محاولة الأنثى شبْه يائسة أمام بناء مُغلق هُندِسَ هندسة عصيَّة على السقوط، غير أنَّ الأمل قائم في واقع الاستعمال اليوميّ الذي يترك فسحة للأنثى لتجدَ حظّها من اللّغة. فهل سيفلح الاستعمال في فرض واقع أنثويّ؟

بالعودة إلى واقع الاستعمال اليومي في حياتنا العامَّة نجد الأنثى حاضرةً في -حدود ما- بحيث نرى في كثير من المحافل على غرار النَّدوات الجامعيَّة أو في الملتقيات العلميَّة تُستعمل مصطلحات من قبيل «رئيسة

32- انظر عبْد مهنّا، معجم النساء الشَّاعرات في الجاهليَّة والإسلام، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، 1990، ص 6.

33- عبد الله الغذّامي، المرأة واللغة، ص 47.

الجلسة»، «المديرة العامَّة» «العضوة المناقشة» «السيّدة الوزيرة»، وهذا إنْ دلَّ، فهو يدلُّ على تسللها إلى الحياة العامَّة ومحاولتها إيجاد موقع لها ضمن بوَّابة اللّغة.

غير أنَّ الاستعمال في واقعنا اليوم، وإن حفظ ماء الوجه بأن أجاز -في حدود ما- استعمال مثْل هذه المفردات، فإنَّ بنية اللّغة العربيَّة غير ذلك، فهي تأبى في عمقها النَّظري التأصيليّ أن تؤنّث بعض الألفاظ المذكَّرة، ويمكن أن ترى ذلك في معاجم اللّغة التي تكاد تُجمع على هذا القانون الذّكوريّ، بحيث تُبقي على بعض الألفاظ في صبغتها الذكوريَّة المحْضة، وهنا يبقى حضور الأنثى حضوراً في ثوب الذَّكَر، فهي برغم اقتحامها مجال الواقع في كامل مفاصله الاجتماعيّ، والسياسيّ، والثقافيّ بقيت تحت رحمة فحولة اللّغة، ففي كثير من استعمالاتنا اليوميَّة التي تحضر فيها الأنثى باعتبارها عنصراً فاعلاً في المجتمع تجدها داخلة في سياق الثقافة الذكوريَّة، ولك في الألقاب الإداريَّة والعلميَّة التي صغناها خير مثال، بحيث تخجل اللّغة أن تناديها عضوة أو رئيسة أو دكتورة وتبقيها في إطار العضو والرئيس والدكتور برغم ما رأيناه من إجازة لذلك في بعض الأحيان، يقول عبد الله الغذّامي: «وإذا ما دخلت المرأة مجال العمل الوظيفي فإنَّها تدخل في سياق التذكير، فهي (عضو)، وهي (مدير)، وهي (رئيس الجلسة)، وهي (أستاذ مساعد)، و(محاضر)»[34].

والنَّاظر في كلّ ذلك قد يعْجب من هذه الطائفيَّة الذكوريَّة، وقد يُلقي باللَّوم على الجانب الثقافيّ اليوميّ، فنقول له تريثْ قليلاً، فإنَّ ذلك من بنية اللّغة في حدّ ذاتها، فهذا الذي أوردناه سلفاً في كتب التراث والمعاجم له ما يبرّره، فابن عقيل مثلاً في حديثه عن التاء التي تلحق الصفات قال: «فيقال للمذكَّر والمؤنث «صبور وشكور» بلا تاء نحو «هذا رجل شكور وامرأة صبور»»[35]، ويشترط لكي تلحق التاء أن يُستعمل استعمال الأسماء **أي لم يتبع موصوفه -الإبراز من عندنا-** وهذا جائز بالنسبة إليه، مثال قوله: «هذه ذبيحة ونطيحة، وأكيلة»[36]. وبهذا فإنَّ ابن عقيل يسلب الصّفة التي يمكن أن تصف فاعلها، وهنا لا يمكن لك أن تقول «امرأة عضوة» بل تقول، حسب تصوُّر التُّراث في رؤيته للتأنيث، هي «امرأة عضو»، ومن هنا فهو يسلبها حقَّها بأن تتَّصف ببعض الصَّفات التي يمكن لها أن ترتقي بها لمصافِّ المساواة مع الذَّكَر، فنقول فلان رئيس وفلانة رئيسة.

ويحلو لنا في نهاية هذا المقال أن نشير إلى أنَّ غياب الفعل اللّغويّ النّسائيّ ليس مجرَّد لمحة تاريخيَّة نسردها الآن بأقلام ذكوريَّة -وإن كنَّا نخفيها ونخشى إظهارها- وإنَّما هو مُنعرج حضاريّ تقف وراءه ثقافة بأكملها، ولكن نستشفُّ اليوم وفي كثير من الممارسات تحوُّلاً في الخطاب أصبح يغزو المظاهر السياسيَّة في

34- المرجع السابق، ص 21.

35- ابن عقيل، الجزء الثاني، ص 390.

36- المرجع السابق.

الخطابات، ونذكر مثلاً عبارة: «السيّدات والسَّادة ....»، بعد أن كان «السَّادة والسيّدات...»، وهو تحوُّل قد يُنذر بتغيُّر في العقليَّة، غير أنَّنا نتوجَّس منه خيفة من أن يكون تحوُّلاً شكليَّاً لا أكثر.

ختاماً، يمكن الإقرار بالآتي:

- إنَّ بنية اللّغة العربيَّة قد مارست نوعاً من الطائفيَّة الذّكوريَّة ضدَّ الأنثى، وقد تجلّى ذلك في جملة من الأبعاد، سُقنا أبرزها.

- إنَّ ذكوريَّة اللّغة العربيَّة هي ذكوريَّة نابعة من الثقافة العربيَّة التي حكمتها هندسة الذَّكَر في كثير من مفاهيمها، ممَّا أثّر في طبيعة الخطاب ككل، ومنها الخطاب اللّغوي بصفة خاصَّة.

- إنَّ البُعد الذّكوريَّ، وإن كان حاضراً في الثقافة، -وهذا ممَّا سلّمت به الدّراسات- فهو لا يمنع من تعقّبه ضمن البنية في حدّ ذاتها، وهذا قد يُطرح في شأنه سؤال ميتافيزيقي في نشأة هذه اللّغة من حيث التقعيد.

- ضرورة إعادة النَّظر في كثير من الممارسات اللّغويَّة؛ بما يكسر وهم الذكورة المفرطة ويؤسّس للغة تشاركيَّة بين الذكر والأنثى باعتبار اللّغة لسان الأمم.

المصادر والمراجع:

- **ابن جني** (أبو الفتح عثمان)، الخصائص، د. ت، تحقيق محمَّد علي النَّجّار، المكتبة العلميَّة، دار الكتب المصريَّة.
- **ابن عقيل** (بهاء الدين)، شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك، الجزء الأوَّل، تأليف محمَّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريَّة للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، 2000.
- **ابن هشام الأنصاري**، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، الجزء الخامس، ط1، تحقيق وشرح الدكتور عبد اللطيف محمَّد الخطيب، السلسلة التراثيَّة، الكويت 2000.
- **أبو زيد** (نصر حامد)، دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة، ط3، الناشر المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، 2004.
- **الجاحظ** (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتّبيين، تحقيق وشرح عبد السَّلام محمَّد هارون، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 2014.
- **السّيوطي** (جلال الدّين)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، الجزء الأوَّل، تحقيق وشرح الأستاذ عبد السَّلام هارون والأستاذ الدكتور عبد العال سالم مكرم، نشر عالم الكتب، القاهرة، 2001.
- **الشيباني** (محمَّد)، من قضايا تصنيف الأعمال اللغويَّة (مشروع قراءة)، ط1، مكتبة علاء الدّين، صفاقس، تونس، 2015.
- **الغذّامي** (عبد الله محمَّد)، المرأة واللّغة، ط3، المركز الثقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، 2006.
- **المرادي** (حسن بن قاسم)، شرح الألفيَّة لابن مالك، تحقيق الدكتور فخر الدّين قباوة، دار مكتبة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- **المعرّي** (أبو العلاء)، لزوم ما لا يلزم، اللزوميَّات، المجلّد الأوَّل، دار صادر للطباعة والنشر بيروت، 1961.
- **بورديو** (بيار)، الهيمنة الذكوريَّة، ط1، ترجمة سلمان قعفراني، مراجعة ماهر تريمش، المنظمة العربيَّة للترجمة، بيروت 2009.
- **مهنّا** (عبْد)، معجم النّساء الشّاعرات في الجاهلية والإسلام، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، 1990.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018